النسب والعرب

قرئت في أحدية راشد المعارك يوم الأحد ١٤٢٠/١٠/٢٣هـ - ٢٠٠٠/١/٣١م

النسب هو القرابة سواء جاء من جهة الأم أو الأدب، والعرب في أول أمرها تستعمل كلمة النسب للمعنيين ثم غلبت النسب لجهة الأب والأجداد لصلب الرجل، أما ما نسب المرء من جهة الأم فيسمية خؤولة. وكلمة نسب في معاجم اللغة تعني القرابة والصلة، وقد ذكر المستشرق مرجيلوت أن كلمة نسب الموجودة في اللغة العربية خاصة بها لا توجد في اللغات السامية الأخرى التي منها اللغة العربية ويزعم تفرد العربية في ذلك.

وإذا نظرنا إلى التراث النظري عند العرب نجد مادة نسب كثيرة التردد في أدبياتهم وعلائق حياتهم واتصالاتهم وقد استعمل القرآن ذلك المعنى عند نزوله كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ [الفرقان: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] فالآيات القرآنية الكريمة تمد النسب إلى طبيعة الصلة والقرابة والتشابه في الحال والعون في الأمر والمساعدة عليه.

أما الآثار فكثيرة أيضاً منها قوله "كل نسب وسبب ينقطع إلا سببي ونسبي" "وتعلمون من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة

www.mtenback.com

في الأهل مثراة في المال منسأة في الأجل مرضاة للرب" وهذا النص يحدد المعنى الاجتماعي للنسب والغرض منه ويقيم بيان النسب المقبول الذي يمكن تعلمه على الحقيقة لا علم الوهم.

وجاء في معنى النسب واكتساب خصائص الآباء الآخر "الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" وهو مفهوم إنساني عرفته الأمم وأدركت أثر الوراثة في السلوك والنظر والحكمة أو ضدها. أما في النسب بمعنى الصلة الخاصة فقد جاء فيه الأثر عن عمر بن الخطاب "لا تكونوا كنبط السواد إذا سئل الرجل عن نسبه قال من قرية كذا" وهو أثر يؤكد مفهوم العرب القبلي للانتماء وأهمية المحافظة على ما اعتادته العرب في جزيرتها من انتماء قبلي واضح لا يقبل الانتماء لغير القبيلة. أما في تحقيق النسب واحترام الدعوى به وعدم المنازعة فيما يدعيه المرء لنفسه فقد جاء الاثر الآخر "الناس مؤتمنون على أنسابهم ما لم يدعوا شرفاً" لأن في الشرف حقوقاً خاصة وفضائل يحرص عليها مدعي النسب الشريف فلا يصدق بنسب يرفع من شأنه أو يكسبه محمدة لا يكسبها بغيره وقد عرف عن العرب وغيرهم من الأمم الرغبة بالارتفاع بأنسابهم إلى أنساب أعلى مما هم فيه.

وقد حاول الإسلام في عهد النبوة أن يوجد المعادل الموضوعي للانتماء الذي ساد حياتهم في الجاهلية، فوضع الأمة مكان القبيلة « إن هذه أمتكم أمة

www.mtenback.com

واحدة» وحاول أن يضع التقوى قيمة اجتماعية مكان النسب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] وأن يضع للكفاءة الإنسانية والبشرية معادلاً آخر، وأن يجعل للكرامة والمكانة المميزة للمرء شيئًا جديداً فنفى أن يكون النسب أو الحسب مما يفخر به ، وإنما أكد قيمة الإنسان بنفسه {لا فضل العربي على عجمي إلا بالتقوى} وضرب مثلاً للمساواة في غاية الأحكام « الناس لآدم، وآدم من تراب» ولكنه لم ينكر ما وقر في نفوس العرب وما استقر في تاريخهم وآمن به عامتهم وخاصتهم وهو القبيلة ولكنه عرفها تعريفًا مختلفًا عن التعريف الذي يبنى عليه معناها الأول فقال في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات : ١٣] ثم بين لماذا كانوا كذلك ﴿لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] وأدرك ما بين القبائل العربية من تفاخر وادعاء للشرف والسؤدد والزيادة فيه فجعل الدين والتقوى هي ذاك السؤدد والشرف وقال « مزينة، وجهينة، وأسلم، وغفار، خير من تميم وبني عامر. وهذه القبائل جميعها لا يفضل بعضها بعضًا في النسب فهم مستوون في ذلك ولكن يفضل بعضها بعضًا في العدد والكثرة والسطوة وهذا هو وجه المقارنة بينهم، ولذلك كانت الإشارة هنا إلى القوة التي تنصر المبدأ، وقد كاد عصر النبوة أن يحول ولاء الجاهلية وفخرها بأحسابها وأنسابها إلى فخر بالتقوى والمساواة بين الناس والعمل النافع الذي يرفع من شأنه عامله مهما كان معدنه، وقد نامت دعوى النسب والانتماء وقامت الكفاءة الذاتية مقام

www.mtenback.com

الاحتماء بالعشيرة والقبيلة، لكن ذلك لم يدم طويلاً ولم يعش وقتاً تربى فيه قيم المساواة حتى تستقرَّ في وجدان العرب. وما كاد النبي يلحق بربه حتى تحرك الانتماء القبلي قوياً وظهرت مرتكزاته والايمان به يوم السقيفة حين ابتدأ فريق من المتناظرين قوله « العرب لا تعرف هذا الامر إلا لقريش» فرد عليه الفريق الآخر « منا أمير ومنكم أمير» وهما قولان ارتكزا على بدأ العصبية، فعادت العرب إلى ديدنها من الاهتمام بالنسب والاهتمام بالولاء ولم يجدوا بديلاً لطبيعة القبيلة وتكوينها عندما ساحوا في الأرض واتسعوا فيها. حيث كان التجنيد على أسس قرابية وقبلية وكان العطاء من بيت المال قد نظم على الصلات القبلية أيضاً. وزاد من ذلك أن المسلمين الجدد ألحقوا بالروابط القبلية الجاهلية وبالأحلاف وفي هذه الظروف التي ظهر فيها التكاثر بالأحساب والأنساب كان لابد أن يعتني العربي بنسبه وأن يهتم بانتمائه القبلي وأن يستزيد من ذلك.

ولم تكن العرب بمحافظتها على أنسابها بدعاً من الأمم فالأمم الأخرى التي سبقت في التاريخ أو جاءت متأخرة لها عناية كبيرة بأنسابها واعتزاز بعنصرها واهتمام باصالتها فاليونان والرومان القدامة أهل اعتزاز بأنسابهم ولهم تقسيمات طبقية في مجتمعاتهم تقوم على أساس التمايز بين هذه الطبقات. والصينيون يحتفظون بسلسلة طويلة من أسماء الآباء والأجداد تصل إلى ألف

www.mtenback.com

سنة، وقد صوروا أجدادهم حتى بلغوا بهم حدَّ التألية والعبادة. ولـم يعد نسيباً فيهم من لم يحافظ على سلسلة نسب بعيدة في الأجداد. والأوربيون في الوقت الراهن شديدو الاعتزاز بأنسابهم ونقاء دماء النبلاء منهم وهم أي النبلاء في الغرب لا يقبلون بأمر التسوية ولاسيماً في الزواج، ويهتمون اهتماماً كبيراً بشجرة النسب وإشارة العائلة الارستقراطية.

أما العرب فتختلف نظرتهم إلى النسب بعض الاختلاف من حيث حقيقته وقيمته الاجتماعية وصحته أيضاً والعمل به. ولن يكون حديثي هذه الليلية عن الأنساب وسلسلتها ولا عن الأجداد ومن يصح له انتماء ومن لا يصح له شيء من ذلك. هذه القضية لا تهمني كثيراً لكن ما سيدور حوله الحديث هو النسب والانتماء والفرق بينهما « وهو فرق لم أحد ممن قرأته له من علماء النسب من وقف عنده وبين وجه الاتفاق والاختلاف فيه بل إن من تناول قضية الأنساب جعل الانتماء والنسب واحداً وآخرهم أبو عبدالرحمن بن عقيل في محاضرة ألقاها العام الماضي في مكتبة الملك فهد الوطنية» وقبل النظر في هذه النقطة بالذات لابد أن ننظر إلى العرب وكيف تعاملت مع النسب والانتماء حيث نجد أنهم جعلوا من الانتماء أساساً للتكوين الاجتماعي والسياسي وربطوا بين صلة الرجل بنسبة وقوة انتمائه إلى من يجتمعون معه فيما يزعم أنه مرجعية التقاء الأجداد وعلى هذا الأساس اهتمت كل قبيلة من القبيلة في الجاهلية وفي

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com

www.mtenback.com

الإسلام بتحديد الروابط القرابية بينها، وحرصت على ألا تترك لروابطها النظرية وهناً أو ضعفاً.. يخل في عملية الانتماء، فقامت نظرية النسب عندهم على أساس الولاء للمجموعة البشرية التي ينتمي إليها الفرد المقام الأول وقد اشار إلى اهتمام العرب بتجديد الانتماء كل من درس تاريخهم الجاهلي والإسلامي فقالوا: « لا نكاد نعرف أمة عاش ماضيها في حاضرها، وكان له الأثر الفعال في توجيه حياتها الاجتماعية والسياسية والأدبية كالأمة العربية، آية ذلك كثرة ما تحصيله المراجع والمؤلفات التي تناولت أنساب العرب، وترجمت لمشاهير علماء النسب » . فالعرب جعلوا علم النسب بناءً اجتماعياً مهماً وتكويناً ديموغرافياً وجغرافيا كاملاً، وقامت على أساس هذا التكوين صلات سياسية ونشأت تكتلات بشرية غيرت واقع الدول والممالك في الإسلام وامتد سلطان القبيلة إلى المشرق كله وإلى أطراف الغرب الأوروبي وعاشت العصبية القبلية، أشد ما تكون قوة وهي بعيدة عن موطنها الاصلي في جزية العرب .

وقد أقامت الحروب والأيام على مبدأ قناعاتها بروابط الانتماء وصلته بحياتهم، وانتماء كل فرد فيهم إلى هذه الرابطة المزعومة التي بناها على أنها حقيقة وهو أمر يخضع لتصورات اجتماعية وتقاليد وأعراف نشأت عندهم واستقرت في مداركهم واعتمدت عليها معارفهم وقد جاء الشعر يشرح قناعات العرب واعتقادهم سواء كانت هذه القناعات تعتمد على شيء من الصواب أو

www.mtenback.com

كانت مجردة وتنظيراً، لأن المعول في رأيي العربي على ما يظنه وما يعتقده وليس على الحقيقة وثباتها.

والتعلق بالنسب شيمة من شيم العرب وجزء من شخصياتهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، والفخر به في العقل العربي يتسع فيه الخال ولكنه يتخذ من انتمائه دلالات خاصة ويشكل النسب الذي يريده بدوائر ذات أبعاد مختلفة، ويستطيع في حال آخر أن يتسع في الانتماء إلى الاطار العام الشامل للنسب البعيد حسبما يقتضيه غرضه وقد جاء من الشعر الشاهد عند امرىء القيس حين يفخر بنسبه القريب :

إني امرؤ من خير كندة   إلى من له في العز ورد ومصدر

إذا ما تمضرنا فما الناس غيرنا   ونضعف أحيانًا ولا نتمضر

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com

ونصر بن سيار لا يقنع بأقل من الانتماء إلى نزار كلها أي إلى نصف العرب في تقسيمات النسابين حين يحتاج إلى ذلك في معنى سياسي مرَّ به فقال :

أنا ابن خندق تنمني قبائلها   للصالحات وعمي قيس عيلانا

من هذه الإلمامة السريعة عن نظرة العرب في الانتماء والنسب نصل إلى النقاط التالية وهي التي ستكون محور الحديث في هذا المجلسِ :

- النسب أهميته ومشروعية حفظه ومعرفته.
- الانتماء القبلي وحقيقته وعلاقة العرب به وأهميته.

www.mtenback.com

- الفرق بين النسب والانتماء .
- لماذا يتخلى الإنسان عن انتمائه القبلي، ومتى يتخلى عنه، وكيف يتخلى عنه؟
- ما الظروف والأحوال التي تعيده إلى الانتماء القبلي، وتجعله يحرص على النسب ويهتم به.

أما معرفة النسب فلا شك أنه يجب شرعاً وعرفاً أن يعرف المرء نسبه القريب الذي يصل به رحمه ويبر به أهله ويعرف حقوق القرابة الشرعية وواجباتها حتى يتجنب الموانع والمحرمات بين الأقرباء كالزواج من الأقارب وغيره مما يتعلق بالنسب القريب. وهذه القرابة تحددها الأعراف القبلية العربية بما يسمى بالعاقلة في العرف القديم، وقد قبل الإسلام هذا العرف واقره. وفي العصر الحاضر يسمون الامس وهو أن يعد المرء أباءه إلى الجد الخامس ثم تنقطع القرابة ولا يكون بعد الجد الخامس قرابة ملزمة وهذا عرف معمول به عند القبائل العربية المعاصرة : وقد وجدنا حتى القرآن يعترف بالتدرج القرابي والوشائج المتينة التي تدرك حقيقتها حينِ أمر رسوله أن ينذر عشيرته الأقربين. وأن القرآن أو الرسالة ذكر له ولقومه. وأدرك الرسول هذا المفهوم للنسب القريب بحديثه المشهور : يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com

www.mtenback.com

أما الانتماء القبلي، الذي يخلط كل الناس حتى علماء الأنساب بينه وبين النسب القريب فهو في حقيقته تكوين اجتماعي بشري صرف قام على أساس المدرك العربي الأول لقرابة الدم التي عرفت بالنسب الصحيح عن طريق الأبوة، وعندما احتاجت الجماعة إلى صورة من التكوين البشري، وظفوا المدرك الأولي لكل صلة ينتمون إلى أب واحد وإنما انتماؤهم إلى مصالح يحققها تجمع يسمونه القبيلة كما يحقق النسب مصالح المشتركين فيه. والدليل أن العرب تعرف أن صلة الأبوة غير متحقق في كل تجمع قبلي، هو الأحلاف التي تتكون من قبائل شتى وافراد لا يمتون بصلة غير صلة الحلف حتى يصبح الحلف نسباً وانتماء عندهم ويسمون به وتنسبون إليه كما ينتسب الأبناء إلى الأب الواحد فمثلاً حلف الرباب اصبح اسماً تنتمي إليه جميع الأحلاف وتسمي نفسها بالرباب وغير الرباب أمثلة كثيرة.

أما الفرق بين النسب والانتماء فأظنه أصبح واضحاً من هذين المثالين السابقين إذ النسب لصلب الآباء الذين تتحقق معرفتهم وصلة المنتسب إليهم بالعدد المتواصل للأجداد غير المنقطع وهذا ما لا يجهله أحد من الناس. وهو رد على من يزعم أن في المملكة العربية السعودية أفناء جهل نسبهم وهذا ليس صحيحاً فهؤلاء الأفناء يعلمون آباءهم إلى الجد العاشر أو أكثر ويعمل أكثرهم من أبن جاؤوا ولا يجوز عرفاً ولا شرعاً أن نصفهم بأنهم مجهولو النسب ذلك

www.mtenback.com

خطأ كبير لا يقول به إلا من لا يفرق بين النسب والانتماء، والذي أوقع بعض الباحثين فيه هو خلطهم بين النسب والانتماء القبلي فانتماؤ هؤلاء الأفناء لقبائل معينة لا شك أنه جهل، أما نسبهم فيعرفونه ويحفظونه بل لعل بعضهم يحفظ من أنسابهم أطول وأصدق مما يحفظ الذين ينتمون إلى القبائل العربية، لأن الانتماء إلى القبيلة يعفي المنتمين إليها من الاهتمام بالنسب القريب والمحافظة عليه حيث يكتفون بعدد قليل من الأجداد القريبين وهذا يكفيهم لأن القبيلة تضفي عليهم نسبها وقيمتها الاجتماعية والمعنوية فلا يحتاجون إلى العناية بالأنساب الخاصة ولا تعدد الأجداد.

أما السؤلان الأخيران فسأترك الحديث عنهما للنقاش في هذا المجلس ونشترك جميعاً بالإجابة عليها.

وهما: لماذا يتخلى الانسان عن انتمائه القبلي، ومتى، وكيف؟

ما الظروف التي تعيده إلى الانتماء القبلي، وتجعله يحرص عليه ويتم به؟

www.mtenback.com